الفصل الثامن

العوامل النفسية فى العلاقات المصرية – الإسرائيلية

عقدة الشعور بالذنب لدى الإسرائيليين

يناير ١٩٧٨

فى يقينى أن أهم ما يحدث هو هذا التغيير الحقيقى هذا التحول الذى يطرأ ، وهذا الزلزال السياسى . فإن التفجير النفسى والفكرى والإنسانى « داخل إسرائيل » قد حدث .

وحقائق جديدة تفرض اليوم معاودة التفكير فى أمور اتخذت مع الوقت شكل البديهيات .. حقائق فرضت فتح سجلات أقفلت منذ مدة . وفرضت إعادة النظر فى أمور عادت مُلحَّة . وفجرت الجدال حول مسائل مؤجلة تثير مناقشات فى أمور أساسية ومصيرية .

ومع أنه توجد مسائل سياسية ملحة أمام المفاوضين مثل موضوع الأرض ، والانسحاب ، والأمن .. كما توجد أيضاً مشاكل سكانية واستيطانية .. وكلها مشاكل لم تكن موجودة قبل حرب عام ١٩٦٧ .. ومع ذلك لم يقلل ذلك عندئذ من حجم الصراع ولا حِدَّته .. إذن ما هذه إلاّ واجهات حالية لمشكلة ضاربة الجذور فى أعماق الأرض وتعرف بالمشكلة الفلسطينية .

وما أعتقد أن فرداً واحداً فى إسرائيل إلاّ ويتفق على الأقل بينه وبين ذاته على

أنه بدون حل المشكلة الفلسطينية ، لا يوجد حل للصراع فى الشرق الأوسط . من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين ، يعلم الجميع أن المشكلة الفلسطينية هى المشكلة الأساسية فى الصراع الذى واجهته الصهيونية بمجرد أن دخلت أرضاً عُرفت على مر التاريخ باسم فلسطين .. أى لا مهرب من المشكلة الفلسطينية ، وإنما الخلاف هو حول أى نوع من الحلول يقدم إلى المشكلة الفلسطينية .

ولا جدال أيضاً أن للمشكلة الفلسطينية مدخلين ، أو تقييمين أحدهما التقييم التاريخى – المعنوى ، وهو ما يتحول مع الوقت إلى ما يسمونه بالأيديولوجية أو العقائدية بمعنى هل يوجد – ابتداء – ما يعرف بالأمة الفلسطينية ، وبالتالى يكون لها حقوق فيما يسمونه « بإبريز إسرائيل » أو فلسطين كما تعرف عليها العالم على مر التاريخ ؟ ! أو إنه لا توجد مثل هذه الأمة وبالتالى لا توجد لهم حقوق ؟ !

أما التقييم الآخر فهو (الواقعية – السياسية) بمعنى هل شعب إسرائيل مع أو ضد إيجاد دولة فلسطينية .. وهنا لا تدخل الاعتبارات الأخلاقية ولا المعنوية ، وإنما تدخل اعتبارات (الحل السياسى) لإنهاء الصراع فى الشرق الأوسط .

هذان هما المدخلان إلى مناقشة المسألة الفلسطينية ، وبما أنه لا يمكن أن يُحَدَّ تماماً مدى التغيير الذى طرأ على العقلية الإسرائيلية فلنتجول معكم قليلاً داخل نماذج من الفكر الإسرائيلى فى هذه المشكلة الحيوية الأساسية ، المعروفة بالمسألة الفلسطينية .

ولنبدأ بالرأى العام أو ما تعارف عليه الناس دوماً بالأغلبية الصامتة . وهؤلاء فى إسرائيل موقعهم فى الوسط بين اليمين واليمين المتطرف ، وبين اليسار واليسار المتطرف أيضاً .

ومشكلة الأغلبية الصامتة هى أنها ترى المسألة الفلسطينية (سياسيًّا) باعتبارها من خلق العرب المجاورين ، وتقع فى نطاق مسئوليتهم ، كل تلك المآسى المركبة

« أنه خطأ العرب منذ البداية . ولو تقبلونا كياناً صغيرًا محدودًا سواء فى الثلاثينيات من هذا القرن أو فيما بعد التقسيم عام (١٩٤٧) .. لولا تعنتهم لكنا فى غاية السعادة .. ولبقينا فى سلام ولما تفجرت حروب وسفكت دماء » .

هنا وضمن هذه الأغلبية الصامتة من الرأى العام لا يمكن أن نغفل عنصر الشباب .. طلبة المدارس العليا والجامعات الذين وُلدوا فيما بعد عام ١٩٤٨ .. والذين لم يعايشوا (المعاناة) ولا عرفوا المحارق الجماعية ولا معسكرات الاعتقال إلاّ فى الأحاديث والكتب .. هؤلاء الشباب الإسرائيلى فى خلفيتهم يوجد شعور بالذنب وبأن إثماً كبيرًا قد اقترف فى حق العرب سكان تلك الأرض على مر التاريخ . إن كثيرًا منهم يعرف هذه الحقيقة فى أبنائهم الذين يتعلمون فى الجامعات ويدرسون ويفكرون .

أما اليسار من غير المنتمى إلى الحركة الصهيونية (ولو أنهم أقلية) فإنهم يناقشون المسألة الفلسطينية من خلال مناقشة النظرية الصهيونية ذاتها ، والجدال حولها وحول نجاحها وفشلها ، أو حتى تقييمها فى ظل الظروف المتغيرة .. ومن هؤلاء من يصل بتفكيره إلى حد المواجهة بأن كل ما حدث فى الثلاثين عاماً الأخيرة – بل نصف القرن الأخير كله – إنما هو « خطأ من اليهود » . فلم يكن من الجدير بهم أن ينفذوا هذه « المغامرة » أو هذا المشروع للاستيطان اليهودى لفلسطين .. ويمكن التأكد من حقيقة وجود هذا اللون من التفكير الإسرائيلى من خلال القراءات لعدد من المثقفين والمفكرين من اليهود .. إنهم يقرونه . يؤكدونه حتى ولو لم يذكرونه بمثل هذا التعبير الصريح .

وعندما ننتقل الآن إلى (اليمين الإسرائيلى نجده بالإضافة إلى تبينه فكرة « التعنت » والتصلُّب العربى وتفسير المشكلة الفلسطينية على أساس أنها مسئولية العرب المجاورين .. نجد نوعية منهم أيضًا تعتبر فى أقصى (اليمين) الإسرائيلى ،

تضاهى فى تفكيرها بالتمام ما يعرفون فى المفهوم العربى – أو ما يُطلق عليهم اليوم اسم (الرافضين) هؤلاء وهؤلاء عناصر صلبة متطرفة ، يتفقان فى تطرف المفاهيم ولو أنهما طرفا نقيض . أى كلاهما يرى فى أن الصدام بين العرب واليهود هو صدام تاريخى قدرى لا مفر منه ولا حلَّ له سوى الدماء ومزيد من سفك الدماء . هذه الأقلية اليمينية الإسرائيلية المتطرفة تكرر القول بأن « لا بديل من الغزو والتوسع والاستيلاء بالقوة ، والتمسك بما نأخذ سواء شاء العرب أم لم يشاءوا » .. وهؤلاء ولو أنهم جزئية محدودة على الهامش السياسى فى إسرائيل إلاّ أننا من خلالهم نستطيع أن نتفهم الكثير مما يجرى داخل بقية الآراء المختلفة ، والتغييرات فى المواقع السياسية بينهم أيضًا بل . يمكن تفهم الخلافات الحزبية المتشعبة التى تجعل للون السياسى الواحد عدة ظلال .

بثور على وجه قبيح

هل من الظلم أن نضع الإسرائيليين جميعًا فى سلة واحدة ؟ .

إنّ لديهم من التفاوت والاختلاف – حتى فى ظلال اللون السياسى الواحد – ما يكفى للتفريق بين لون ولون .. فإذا استثنينا موضوع « البقاء » بكل مترادفاته فإن الإسرائيليين ليسوا كلهم مناحم بيجين . ولا سائر الدمامل والبثور السياسية الأخرى التى طفحت على وجه إسرائيل فأحالته إلى صورة وحش كاسر مُنفِّر .

ولكن ووفق هذا المفهوم فإن العالم ينتظر من هذا الشعب أن يبادر بالعلاج ، ويكون طبيب نفسه . وينقذ ذاته بذاته أو من ذاته .

وقد يكون من الضرورى التعرُّف على هذه الظواهر السياسية التى نتابعها على المسرح السياسى فى إسرائيل .. فالتناقض بائن بين المرحلة الأولى لهذه الدولة

الناشئة .. والمرحلة التى تلت ، بدءًا من حرب ١٩٦٧ إلى حرب ١٩٧٣ إلى ما نتابعه اليوم من حيث شحوب سمو الرسالة التى كانت تحمل معالم معاناة شعب مشرد يبحث عن مكان للعيش تحت الشمس .. إلى جيش احتلال عسكرى يتمدد ويزأر ويقمع بالقوة شعبًا آخر على رغم إرادته . قد يكون من المفيد أن نراجع بسرعة علامات هذا التحول السريع الذى لم يعد يخفى على العالم ، وهو الذى تعاطف يوماً مع شعب اليهود ... ولكنه يتحول اليوم إلى التعاطف مع الفلسطينيين .

لنتابع معاً علامات هذا التحول السريع العجيب .

برغم أنّ من بين أسلاف مناحم بيجن من كان يحلو له ويستعذب استقراء وعد الرب لإبراهيم « لذريتك قد أعطيت هذه الأرض من نهر مصر إلى نهر الفرات » .. وبرغم أن هناك دائماً من بين المتعصبين الصهاينة من كان يهرب إلى خيال أحلام مبهمة بدولة يهودية « داخل الحدود التاريخية » لإيريز إسرائيل .

... برغم هذا فإنّ أحدًا منهم لم يجرؤ قطّ فيما مضى على طرح أحلامه هذه على أرض الواقع . ولا التصريح بها جهرًا أو رسميًّا على الملأ .. كانت أشبه بخواطر فولكلورية ذات مسحة تلمودية .

ووجدت إسرائيل نفسها وفى حوزتها الضفة الغربية وغزة بالإضافة إلى سيناء ، فى أسهل معركة وبأيسر السبل ! وحتى ذلك الحين ظل المفهوم السائد على الأقل بصفة مبدئية أن هذه الأراضى ستعود إلى أصحابها فى حالة تسوية سلمية .. أى لم يكن يحلم أحد فى إسرائيل وحتى ذلك الحين أن يستولى على هذه الأراضى . ولا أن يتخيل لبرهة أن يحكم أهلها بالقوة !

فى تلك الأثناء . وفى فورة النشوة بالانتصار السهل . خرجت إلى الوجود جماعة جديدة أسمت نفسها بحركة إسرائيل الكبرى . وبدأت تدعو لأول مرة علناً وعلى الملأ أن تتمسك إسرائيل وتحتفظ بكل ما تحصل عليه .. وبالمناسبة من بين

زعماء هذه الحركة شامويل تامير ، أحد معاونى ووزراء حكومة بيجين ، وعضو مفاوضات الحكم الذاتى للفلسطينيين ..

وشامويل تامير كان يعاون بيجين فى عصابة أرجون زفاى ليومى الإرهابية ، التى كان زعيمها رئيس وزراء إسرائيل (بيجين) . تلك التى نسفت فندق الملك داود بنزلائه فى القدس عام ١٩٤٨ ! .

والتاريخ له ذاكرة قوية !

فإذا كانت حركة إسرائيل الكبرى قد ولدت فى أجواء النشوة والتفوق السريع والانتصار الذى يطير العقل .. فإن جماعة جوش أمونيم أو (المؤمنين) كما يطلقون على أنفسهم ، هم أبناء الحسرة التى أعقبت الأيام الحالكة التى هزت الإسرائيليين عام ١٩٧٣ .. حرب أكتوبر أو يوم كيبور كما يطلق عليها الإسرائيليون .. وتاريخ المعاناة اليهودية يرصد غالبًا فى أعقاب كل كوارثهم ، مولد ، أو ظهور حركات متشنجة ذات صبغات شبه دينية ومسّوسة ... وجماعة جوش أمونيم بالتحديد لهم سمات معروفة .. فهم لا يثقون بأحد من العالم الخارجى .. وكل ما يخرج من جماعتهم محسوب على العالم الخارجى . وهم لا يقيمون وزناً لما يعرف بالواقع .. ولا يقرون سوى بأساطير ماض لهم سحيق .. جاءت ظهورها فى أرض الواقع السياسى الإسرائيلى يقوم على أساس أن إعادة أى بوصة من الأرض (المقدسة) إلى أياد (أجنبية) هو بمثابة كفر ! !

فإذا بحثنا عن مصدر التأييد الرئيسى لهم وجدنا أنه – وللعجب – جناح الشباب فى الحزب القومى الدينى . أما عميدهم .. أو مرشدهم الروحى فهو رجل دين شهير لديهم .. حاخام زفى يهودا كووك .. شيخ طاعن فى السن ، يبلغ التسعين ، ذقنه طويلة وبيضاء ، وله على أتباعه تأثير غريب ..

والنبى موسى الذى تعدى مائة عام قد خلف مفهوماً مغروساً فى أعماق اليهود

بأن الحكمة والعمر يسيران يداً بيد .

فى عام ١٩٧٥ قامت هذه الجماعة بتنظيم مسارات شعبية عبر الأرض المحتلة .. بلغ عدد أعضائها المنضمين إلى المسيرة ما يصل إلى العشرين ألفاً .. ووصلوا إلى نقطة قريبة من نابلس المدينة العربية .. وأخذوا يضعون الأساس لأول مستوطنة تخرج تماماً عن أى حزام للأمن ، وإنما تدخل فى حيز الاستفزاز الصريح لمشاعر العرب بلا أى مبرر .. أطلقوا على تلك المستوطنة – اسم « قدوم » وبدأ العمل . وبلا إذن رسمى من الحكومة ، وكان يرأسها فى ذلك الحين إسحق رابين .. ومع ذلك ، وبرغم المعارضة الشكلية أو المظهرية العلنية فإن المقاومة الحكومية أو الرسمية لهم لم تكن بالجدية المتوقعة .. بدليل أنهم لم يمنعوهم بالفعل عن المضى فى العمل .. أما عندما شرف مناحم بيجين وأتت به الانتخابات إلى حيث أمسك بمقاليد السلطة فقد شجع جماعة الجوش أمونيم ووعدهم خيراً .. أى « مزيداً من قدوم أمامكم ! » .

ولكن حدث أن وقّع بعد ذلك مناحم بيجين على اتفاقيات كامب دافيد . وبدأ الخلاف يدب بين هؤلاء وبيجين .. فإن أخشى ما تخشاه جماعة جوش أمونيم وأتباعها هو أن يتحول الحكم الذاتى فى الضفة الغربية وغزة – وأن يؤدى إلى دولة فلسطينية ... وقبل أن يتولى مناحم بيجين مقاليد الحكم فى عام ١٩٧٧ .. ولم يكن أحداً يشمع أو يندر أن يسمع بما يسمى بجوديا وساماريا ، إلاّ إذا عاد وفتح ملفات التاريخ ، وعاد إلى عهد ما قبل ميلاد المسيح ! والتطور الديماجوجى السريع اكتسى بمسحة دينية متطرفة على أرض الواقع السياسى لدولة إسرائيل فيما بعد حرب عام ١٩٧٣ إلى أن بلغ الذروة مع وصول بيجين إلى السلطة ، ومع ميلاد حزب جديد صغير خرج من زبد مشاعر القلق والمخاوف التى أعقبت المواجهة المصيرية للسلام .

حزبٌ سمى (بالنهضة) ويترعمه أستاذ أكاديمى سابق ، كان رئيساً لهيئة الطاقة فى إسرائيل . من علماء الطبيعة اسمه يوفاك نيمان . انغمس فى تنظيم حزب سياسى يجمع بين أشد جماعات التطرف للمشاعر الدينية والفكر السياسى . حزب يعيد تنظيم الصفوف ويضيف إلى حركة إسرائيل الكبرى ابنة أيام الزهو والخيلاء والغطرسة جماعة جوش أمونيم وليدة المرارة والكمد فيما بعد حرب أكتوبر . لقد حاول أستاذ الطبيعة أن يذيب هذا مع ذاك ويحولها إلى معادلة كيميائية ، لها قوة الضغط على الحياة السياسية .. وقد أفلح هذا الحزب فى الحصول لنفسه على مقعدين بالكنيست .. أحدهما تحتله السيدة اليمنية الأصل المسماة جيولا كوهين . تلك السيدة التى قطعت فى الكنيست ورقة إلى نصفين عند التصويت على المعاهدة مع مصر .. السيدة التى أخرجوها من القاعة عند التصويت على حل مستوطنات سيناء .. السيدة التى قدمت مشروع القانون بضم القدس رسمياً إلى إسرائيل ... وأما صاحب المقعد الآخر . فهو السيد موشى شامير الذى خرج على بيجين عندما وقّع اتفاق كامب دافيد .. وهو زعيم عصابة إرهابية معروف على أيام الانتداب البريطانى . وهو ذاته الذى لم يجد مناحم بيجين غيره ليشغل المنصب الذى خلا لوزير الخارجية عضو وفد مفاوضات الحكم الذاتى للفلسطينيين !

هذه هى الشخصيات الرئيسية على مسرح السياسة الإسرائيلية اليوم .. وهذه هى التوليفة التى تحكُم بل تتحكَّم (بتشديد الكاف) فى إسرائيل وتدعى الآن بأنها تمثل تياراً عريضًا من الرأى العام ..

أين يكمن سر بيجين ؟

لم أقابل من الإسرائيليين ، من أعلن أنه يتفق مع سياسة مناحم بيجين . ولو صدق هؤلاء جميعاً على اختلاف ألوان مذاهبهم وتفكيرهم لكان ذلك أدعى إلى سقوط حكم مناحم بيجين منذ فترة ، ولأدى إلى إجراء انتخابات مبكرة عن موعدها المحدد بربيع عام ١٩٨١ .

أليس هذا هو منطق الأمور فى دولة تتيه بالديمقراطية .. أى تفاخر بأن لديها نظاماً يمثل الشعب بقدر ما يمثل ما يريده الشعب !

وظاهرة المعارضة القوية لفكر مناحم بيجين مشهودة ومحسوسة بالفعل برغم الظاهرة أو التقليد المتبع فى إسرائيل بضرورة الالتزام بانضباط سياسى صارم خارج الديار .. فإذا كانت الأغلبية من طبقة المستنيرين والكتّاب والصحفيين والفنانين وفئات الشباب الإسرائيلى وشريحة عريضة من الشعب لا تشارك مناحم بيجين وكتلته اليمينية المتطرفة أفكارها المستمدة من الحقوق التاريخية أو الإلهية ولا تجد حرجاً فى التصريح بذلك – إذن ممن يستمد مناحم بيجين وحكومته عناصر البقاء والاستمرار فى عرقلة طريق السلام .. وكيف تواصل سفينته إذا كانت فعلا تبحر ضد تيار شديد من المعارضة السياسية والشعبية على نحو ما نسمع ونقرأ منذ فترة . بل إن أحدث استفتاء للرأى العام الإسرائيلى يدل على أن نسبة التأييد الشعبى لحكم بيجين لا تزيد على ١٨٪ فقط ..

والصحف الإسرائيلية تردد منذ شهور أن أروقة (الكنيست) – أى البرلمان الإسرائيلى – تمتلئ بالتكهنات عن قرب سقوط حكومة لا تسقط .. وتعلل ذلك بأن حكومة بيجين قد وصلت إلى حالة من الوهن السياسى والضعف إلى الحد الذى

لم يعد يمكنها حتى من السقوط !

ولكن الذى يدرس الشخصية الإسرائيلية يدرك أنه كلما زاد الهجوم العالمى على بيجين فى الخارج كلما أتاح له هذا نفحة حياة متجددة لحكومته المحتضرة .. فإن أى شبهة ضغط أو تدخل هى كفيلة بأن تعبئ حالاً شعور التضامن بين الإسرائيليين وبين يهود العالم .. وهذا هو دائماً شعور تلقائى مرادف لميراث تاريخ طويل من ألوان الاضطهاد .. لذلك فيكفى أن يهاجم بيجين ليلتف حوله معارضوه فى لحظة .. ولذلك أيضًا لا يستبعد أن بيجين يستخدم هذا العامل لصالحه خير استخدام .. فلا يمكن تصور سياسته الاستفزازية المتكررة إلا أنها حث متواصل لتعبئة تأييد اليهود له مع كل رد فعل عالمى مناهض لسياسته .

وتركيبة الحكم فى إسرائيل تستدعى التأمل وتفسر الكثير .. فالأغلبية التى تتمتع بها (كتلة) ليكود بزعامة بيجين لا تزيد على ٦٨ مقعدًا من مجموع مائة وعشرين . فإذا خرج عن ليكود مثلا حزب التغيير من أجل الديموقراطية بزعامة (يادين) نائب رئيس الوزراء ، فلن يؤثر هذا على حكم بيجين .. ولكن إذا خرج عليه الحزب الدينى فهذا وحده ما يسقط حكم بيجين .. ولهذا السبب فقد أعطاهم بيجين أهم وزارتين فى حكومته . وزارة الداخلية (ليوسف بورج) وهو رئيس وفدها لدى مفاوضات الحكم الذاتى وأعطاهم أيضا وزارة التعليم .. علاوة على مسئولية الشئون الدينية ..

معنى ذلك أن الحزب الدينى هو الذى يسند وحده حكم بيجين .. فإذا ما تخلى عنه سقط توًّا ، وكلما كان هناك من يدعو إلى إسقاط بيجين فسوف يُحاط بالتأييد . إذن فهل هناك من وسيلة أخرى غير إثارة الهجوم عليه سبيلا يواصل به حكمه ؟

ترى لو قُدِّر للمتطرفين فى كل مكان أن يشكلوا حكومات على طريقة بيجين فماذا عساه أن يكون وجه هذا العالم ؟ ! .

مطلوب طبيب نفسانى

يناير ١٩٧٨

كلما حاولت أن تتوغل فى تفهم التركيب الفكرى لإسرائيل غرقت فى تعقيدات لن تجد لها من مثيل فى سائر نوعيات التفكير بين شعوب الأرض ..

وأولى خصائص الإسرائيليين هى تفاوت الظلال وتعددها فى اللون الواحد إلى الحد الذى يؤدى إلى الحيرة والتخبط فيما بينهم قبل غيرهم .. حتى أنه ليقال فيهم إن ثلاثة إسرائيليين لو اجتمعوا لأدى بهم الأمر إلى خروجهم بحزب رابع ، والتموجات الفكرية هذه تشكل إحدى الصعوبات الأساسية لدى التعامل معهم ، خصوصًا فى موضوع مصيرى لا يحتمل كثيرًا من التأجيل ، كمثل اتخاذ قرارات حاسمة تؤثر على مستقبل المنطقة بأسرها .. ولو أنك حاولت أن تستعرض كل ألوان التفكير الإسرائيلى بين القوى السياسية القائمة من أقصى اليمين حتى أقصى اليسار ، لما عثرت بينهم جميعًا على حزب ولا جماعة ولا حتى « شخصية » قائمة بذاتها ، تلتزم برؤية نهائية واضحة حول مصير الصراع العربى – الإسرائيلى .. ستجد كثيرًا من خطوط التفكير المتشابكة المتعارضة ، تتعقد مع بعضها البعض بأكثر مما تتقابل أو تتفق .. ولن تجد تفكيرًا واضحًا شافيًا .. وإنما تجد حيرة وتخبطًا . ربما لأن أحدًا من السياسيين الإسرائيليين لم يدرج فى حساباته قطّ احتمالات مواجهة السلام على النحو الذى طالما نادوا به ودعوا إليه من قبل ، أى أن التفاوض والدعوة إلى السلام كانت تكتيكًا دبلوماسيًا إسرائيليًا للاستهلاك العالمى فحسب ، ولم تكن سياسة موضوعة لها إستراتيجيتها وحساباتها .. بل ربما لم يضع الإسرائيليون حتى الآن إستراتيجية للسلام يتفقون حولها جميعًا ، وهنا يكمن سر الحيرة والتخبط القائم .

ولكن إذا ما أردنا أن نكون موضوعيين حقًّا فلابد أن نسجل وجود عنصر أساسى فى تكوين الشخصية اليهودية عمومًا والإسرائيلية بوجه خاص ، وهو عنصر (الخوف) .. فهو الذى يولّد الشكوك فى نوايا الآخرين ، والإحساس الدائم بعدم الأمان . وهذه كلها هى أهم الخلفيات التى تولد الشراسة والعنف فى الكائنات ، سواء الإنسان أو الحيوان .. وأذرع الخوف فى القط تجعله يتحول إلى ما يشبه شراسة النمر ، وهذه العناصر موجودة بنسب متفاوتة فى الشخصية الإسرائيلية ، ونجدها بتركيز خاص عند المتشين منهم إلى (اليمين) وأقصى اليمين فى التصنيف السياسى الخاص لإسرائيل . ولأن اليمين الإسرائيلى لديه إحساس راسخ بأن العالم كله متآمر عليه .. وأنه لا يمكن بحال أن يثق بأحد . لا بحليف ولا بصديق ، وأن العرب فوق الجميع يهدفون إلى فنائه إن حربًا أو سلماً .. فإنك بالتالى يمكن أن تتخيل ما يمكن أن تسفر عنه مفاوضات يقودها يمينى متطرف مثل مناحم بيجين ، هذا اليمينى بحجم شكوكه ومخاوفه وعقده المركبة ، وإغراقه فى آلام الماضى وملاذه التاريخى ، هذا التركيب الفريد هو الذى يولد (التعصب الفج) الذى يجسده مناحم بيجين الذى يقود اليوم إسرائيل فى هذه المرحلة التاريخية الحاسمة ..

وليس معنى هذا أن اليسار الإسرائيلى لديه حلول جاهزة . أو حتى رؤية واضحة لأساليب الحل النهائى والتسوية الشاملة .. ولكن أخشى ما يخشاه اليسار الإسرائيلى اليوم هو هذا التعصب الفج الذى تعرضه القيادة الإسرائيلية (اليمينية) على العالم ، ويفقدهم إمكانياتهم فى المناورة . وأخشى ما يخشاه اليسار الإسرائيلى أن تؤدى سياسة حكومة بيجين الحالية إلى عزلة حقيقية لإسرائيل ، وهكذا يمكن أن يؤدى فرط الحرص على ما يسمونه ببقاء إسرائيل إلى عكس المقصود به تماماً .. أى إلى ضرر محقق لإسرائيل !

ومن أهم الدرامات التى وردت عن قياس استطلاعات الرأى العام الإسرائيلى

فى مراحل مختلفة يمكن أن تتأكد من أن الشعب هناك أو الرأى العام هو الذى يقود (الحكومة) وليس العكس . أى أن أى حكومة إسرائيلية لا تستطيع أن تقوم بمبادرة سياسية مثلا ، ولا أن تقوم بتنازلات ، وإنما همها الدائم هو أن تقنع الشعب بأنها إنما تنسق سياستها وفق رغباته وحسب المزاج السائد .. وقد تراوحت رغبات الرأى العام الإسرائيلى فى مراحل مختلفة فيما بين أعوام ١٩٦٧ إلى ١٩٧٣ إلى ما بعد المبادرة التاريخية للسادات ..

ونريد الآن أن نتساءل : هل تعبِّر حكومة مناحم بيجين الحالية عن المزاج السائد فى عهد ما بعد الإقدام المذهل لعرض السلام الذى قدمه أنور السادات إلى شعب إسرائيل ؟ !

وماذا يمكن أن يحدث فيما لو افتقدنا الأمل تدريجيًّا فى تحقيق التصالح الكامل فى الصراع مع إسرائيل بفعل كل عوامل تلك التعقيدات المركبة فى الشخصية الإسرائيلية .. هل نندفع إلى الصدام المدمر رغما عنا جميعًا ؟ !

وهل يقف العقل الإنسانى عاجزاً عن إيجاد حلول بديلة للمصير الذى ينتظر آلافاً من الأبرياء يُقادون إلى حتفهم فى حروب يدفعهم إليها نفر من المرضى الذين مازالوا يعيشون فى أسر الماضى ، ويرون المستقبل من خلال أحقاب مفرقة فى عمق التاريخ ؟ ! .

٤٨ ساعة فى إسرائيل

فبراير ١٩٨٠

إن من الأحداث ما يشبه فى طبيعته « عجلة الزمن » لا يمكن إعادته إلى الوراء أبدًا .. وأى تعثر قد يحدث لا يوقف حركة التاريخ ، وإنما قد يعطل أو يؤثر ولكنه أبدًا لا يمحو . ولا تعود العجلة على أعقابها إلى الوراء ..

وظروف المهنة قد حملتنى عدة مرات إلى إسرائيل ، إننى أسمح لنفسى بتسجيل بعض الملاحظات التى لمستها خلال مصاحبتى لوفد المفاوضات المصرى الذى يبحث إقامة حكم ذاتى كامل فلسطينى على الضفة الغربية وغزة .. فإن هذه الزيارة برغم أنها لم تتعد ٤٨ ساعة فقط فإنها جاءت فى مرحلة خاصة تختلف عما سبقها . فقد تلت بدء ما يسمى بتطبيع العلاقات مع إسرائيل . وتوازى أيضًا مرحلة الدخول إلى جوهر المشاكل الحقيقية التى لم يُقدّر لها قطّ من قبل أن تطرح مباشرة على مائدة التفاوض ..

هذان الخطان اللذان يسيران فى توازٍ – سواء شئنا أم لم نشأ – وهما : خط تطبيع العلاقات من ناحية ، وخط مفاوضات الحكم الذاتى الكامل من ناحية أخرى .. وهما يتداخلان بشكل غير منظور .. ويؤثران ويتأثران بالسلب والإيجاب ، وهذا وضع ليس لأحد يد فيه ..

دولتان تبدآن مرحلة علاقات طبيعية لم يسبقها تجربة من قبل .. فإن كل الدول على مدار التاريخ التى وقعت بينها الحروب كانت بينها علاقات عادية من قبل .. تعود لتستؤنف من جديد بكل رصيد تجاربهم المسبقة .. ولكن أن يبدأ (التعارف) بالحروب أولا ثم يحدث التطبيع ، أو بالأصح الاستكشاف ، فهذا أمر دقيق ومشوب بالحساسيات المفرطة . فإذا أضفت إلى ذلك أيضًا الحذر والحساسية المتوارثة لدى اليهود فإنك تجد الحالة تحتاج إلى تناول وعلاج خاص ..

مثلا وجدت استياء إسرائيليًا هامًا ، وسمعت تعليقات شتى على سلسلة رسوم (الكاريكاتير) الطريف جدًا فى صحيفة الأخبار فى البحث عن سفارة لإسرائيل فى القاهرة ! وبدهشة حقيقية تعجبت ، وقلت لهم ألا تريدون علاقات طبيعية ؟ هذه هى طبيعة المصريين . النكتة الحلوة والسخرية حتى ولو على أنفسهم .. وعليكم أن تعوِّدوا أنفسكم على ذلك من الآن !

ومثال آخر : متابعة دقيقة واهتمام غير عادى يصل إلى حد عمل (عداد) لكل مَنْ كَتب ومن لم يكتب عن تطبيع العلاقات ..

ولأن الاهتمام البالغ واللهفة والفرحة بالاصطلاح المشهور (بالتطبيع) هو أمر مفهوم بالنسبة إليهم .. فإنك تلمس مدى خيبة الأمل لديهم عندما لا يجدون شعوراً موازياً لذلك من المصريين .. عندئذ تجد الشكوك طريقها إلى نبراتهم ، وتسمع من يقول : هذا « برود » مقصود من المصريين .. أو أنكم لا تزالون « معادين لإسرائيل » ؟ !

ولقد تعرضت شخصياً لمثل هذا الموقف.. صحفى إسرائيلى وجدته على الطرف الآخر من التليفون يتحدث من تل أبيب . فى أول يوم افتتحت فيه الاتصالات مع القاهرة سألنى بانفعال ما هو شعور المصريين اليوم حول تطبيع العلاقات ؟ هل توجد لديكم فرحة ؟ قلت له باندهاش : الفرحة لدينا هى عودة آخر شبر من سيناء .

قال : أقصد التطبيع .

قلت : وأنا أقصد سيناء .

قال : هل المصريون ضد التطبيع ؟

قلت : لا أعتقد ذلك .

ولكن التطبيع فى حد ذاته لدينا هو (المقابل) الذى نقدمه مقابل استعادة سيناء بلا حرب ولا سفك دماء .. وهذه هى مفاوضات السلام دائماً منذ وجُدت ، كلٌ يأخذ ما يريد مقابل ما يريده الآخر . شىء مقابل شىء ، بحيث يكون كل طرف قد حقق ما يريد .

قال ولكن ألا توجد (فرحة) للسلام . التطبيع هو السلام .

قلت له : التطبيع هو إجراءات نوفيها نعم . ولكن التطبيع النفسى بمعنى السلام الحقيقى فهذا بكل صراحة لن يتحقق قبل إيجاد حل عادل للفلسطينيين .. أى

باستعادة الضفة الغربية وغزة .

قال : هل معنى ذلك أنكِ لا تتوقعين أفواجاً من المصريين سوف تتدفق لزيارة إسرائيل .

قلت له : لا أتوقع ذلك الآن ..

لهذا السبب الذى ذكرت . وليس بسبب تعليمات ولا هى سياسة . وإنما أستطيع أن أقول لك هذا يدور فى ضمير كل مصرى . ضرورة إيجاد حل عادل للمشكلة الفلسطينية حتى يرتاح حقًا . ويتفاعل مع السلام فعلا .

وبرغم أن الصحفى الإسرائيلى لم يخبرنى بأن هذا حوار للنشر . فإننى توقعت ذلك منذ البداية .. بل توقعت تسجيله .. وبرغم أننى لم أسجل الحديث طبعًا لأننى فوجئت به فإننى أذكر ما قلته حرفيًا تقريباً .

ولكن الأهم أننى عندما صحبت وفد المفاوضات بعد ذلك حرصت أن أعرف إذا ما كان قد نُشر هذا الحوار . وعلمت أن الصحف الإسرائيلية قد نشرت أحاديث تليفونية مشابهة مع عدد من الصحفيين المصريين .. وأن هذا الحديث قد نُشر فعلا . ولكنه حذف بعض ما ذكرت . ونشر العنوان بصورة تعكس الاهتمام بالتطبيع فى مصر أيضاً كما فى إسرائيل ، أو شيئًا من هذا القبيل !

وسألت الصحفى الإسرائيلى لماذا لم تنشر رأيى كاملا مع أن تجربتى معكم أنكم عادة أمناء فى النشر ؟

قال لى بالحرف الواحد : لم أشأ أن أنشره كاملا حتى لا يبدو أنك معادية لإسرائيل .

ودهشت مرة أخرى لهذه النبرة الجديدة . لقد سبق عندما سُئلت وكما يحدث عادة معنا كصحفيين مصريين ، أن أبديت آراء أكثر صراحة من هذه المرة ، ونُشرت كاملة بلا أى حذف أو رتوش .